[٢٣٩ – عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما –: أن رسول الله ﷺ دخل مكة من كَدَاء، من الثنية العليا التي بالبطحاء، وخرج من الثنية السفلى].

ذكر الإمام الحافظ – رحمه الله – حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – في دخول النبي ﷺ إلى مكة وخروجه منها، ونظراً لتعلق هذا الحديث بما يحتاجه الحاج من التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به في الدخول إلى مكة ناسب أن يعتني المصنف – رحمه الله – بإيراده في هذا الموضع.

حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – حكى فيه دخول النبي ﷺ عام الفتح وإلا فدخوله إلى مكة كان من هذه الثنية فلم يدخل مكة إلا منها، حتى إنه في عمرة الجعرانة ذكر العلماء – رحمهم الله – وبعض أئمة السير أنه دخل من هذه الثنية أيضاً فدل على أن الأمر مقصود، وهذه الثنية ليست على طريق الداخل من جهة المدينة بل هي إلى شرقي مكة أقرب منها من الجهة الشمالية التي توجد فيها المدينة، فكونه عليه الصلاة والسلام ينحرف إليها يدل دلالة واضحة على القصد. وقال بعض العلماء – رحمهم الله –: إن النبي ﷺ دخل منها عام الفتح كما ذكر أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – إبراراً لقول حسان بن ثابت ﷺ حينما قال في بيته المشهور يتوعد قريشاً:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

فقال ﷺ: (لا تدخلوها إلا من حيث قال حسان) قالوا: فقصد النبي ﷺ أن يبر حسان في قوله. وقال بعض العلماء: إن الدخول من هذا الموضع مقصود شرعاً؛ لأن هذا الموضع فيه باب الكعبة، فإنك إذا دخلت من جهة المعلاة فإنك تنحرف إلى جهة الصفا والمروة ثم باب بني شيبة كان دخول النبي ﷺ منه من باب بني شيبة حيث أناخ ناقته – عليه الصلاة والسلام – ونزل وطاف بالبيت، فهذا عند بعض العلماء أن الكعبة بابها من هذه الجهة، ولذلك قالوا: إن الملوك تؤتى من أبوابها. والله شرّف البيت وعظّمه وفضّله وكرّمه فجعل النبي ﷺ دخوله من هذه الجهة مقصوداً، كما

أشار إليه شيخ الإسلام – رحمه الله – في شرحه على العمدة. وقال بعض العلماء: إن دخوله من هذه الجهة سببه: أن سوق مكة كان في جهة الصفا أسواق المدن هي الأماكن الظاهرة المعروفة، فإذا دخل الداخل إلى المدينة ينبغي عليه أن يدخل إذا كان دخوله لا ريبة فيه أن يدخل من المكان المشهور المعروف، فدخل – عليه الصلاة والسلام – من هذه الثنية لأنها أعلى مكة وبها أسواقها والناس وتجارتهم فجعل هذا الدخول قصداً حتى يكون أعز لدين الله وأظهر لكلمة الله. ومن أهل العلم من قال: إن الدخول حصل من النبي ﷺ اتفاقاً لا قصداً وليس هذا من السنن التي يتأسى بها وهذا هو أضعف الأقوال؛ لأنه لا يختلف اثنان أن دخول المدينة من هذه الجهة وكونه – عليه الصلاة والسلام – عام الفتح يدخل من هذا المكان ثم يكرر ذلك مرة بعد مرة مع أنه لما جاء من جهة الجعرانة كان الأرفق به أن ينحرف ولكنه انصرف إلى هذه الجهة فدل على أنها مقصودة، فيشرع التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به في دخوله من هذا الموضع.

بين رضي الله عنه وأرضاه أن دخوله كان من جهة الثنية العليا وهو التي تسمى "كداء" وتعرف الآن بـ"الحجون"، وهي من القديم كان جهة الحجون معروفة وأبيات الجرني فيها معروفة:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولم يتربع واسطاً فجنوبه إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر

فجهة الحجون معروفة إلى يومنا هذا وفيها قبور المعلاة، والطريق الذي سلكه النبي ﷺ يعرف في يومنا بسوق العتيبية الذي يشق السوق معروف وموجود إلى الآن، هذا الطريق هو الذي سلكه النبي ﷺ ودخل منه من جهة الحجون إلى جهة الصفا ثم دخل – عليه الصلاة والسلام – إلى البيت. وخرج من الثنية السفلى وهذا لا شك أنه من النبي ﷺ قصداً، خرج – عليه الصلاة والسلام – من "كُدا" وهذا عند طائفة من العلماء أن خروجه – عليه الصلاة والسلام – كان مقصوداً، وقرر هذا بعض الأئمة والحفاظ ومنهم شيخ الإسلام – رحمه الله – حيث ذكر إن النبي ﷺ خرج إلى غزوة الطائف من "كُدا"، وهذا الخروج لا شك أنه مقصود؛ لأن هذا الموضع وهو من جهة الحفائر

المعروفة الآن باسم الحفائر الخروج من هذه الجهة إلى الطائف أصعب، فكونه – عليه الصلاة والسلام – ينحرف عن جهة الحجون التي هي أرفق في خروجه إلى الطائف ويخرج من الثنية السفلى يدل على أن الأمر مقصود، وبناء على ذلك: فإنه لا بأس بالتأسي والاقتداء به – عليه الصلاة والسلام – في دخوله وخروجه. قال بعض العلماء: إن النبي ﷺ غيّر طريق الدخول والخروج وهذا أمر مكرر منه في العبادات فذهب إلى العيد من طريق ورجع من طريق آخر، وقالوا: إنه دخل – عليه الصلاة والسلام – مكة من طريق وخرج من طريق آخر لحكم عظيمة ومنها: تكثير الخطى في طاعة الله ﷻ، فإن الأرض تشهد للعبد يوم القيامة وتشهد لأَمَة الله ﷻ بجميع ما خطت ومشت عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فإذا كثرت خطى الإنسان على هذه الأرض بالطاعات والخير جعل الله شهادتها يوم القيامة كما أخبر ﷻ بقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أي: يوم تزلزل الأرض زلزالها تحدث الأرض أخبارها فتتكلم الأرض فينطقها الله الذي أنطق كل شيء وهو على كل شيء قدير، فتنطق لكل إنسان بما عمل عليها من خير وشر، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ فدخوله من طريق وخروجه من طريق يكثر من الخطى في طاعة الله ﷻ ويكثر من شهادة الأرض للعبد الصالح بما عمل عليها، ولذلك قال ﷺ: (يا بني سلِمة، دياركم تكتب آثاركم) فأمرهم أن يلزموا الديار البعيدة لعظيم الأجر في كتب الخطى في طاعة الله ﷻ وآثار العبد في مرضاة الله ﷻ. وكان عليه الصلاة والسلام هديه في الدخول من طريق وخروجه من طريق مكرر في العبادات – كما ذكرنا –، ومن هنا لا يقتصر الأمر على بعضها دون بعض إلا ما ورد الدليل بتخصيصه، فلما كرر ذلك في دخوله لمكة دل على أن الأفضل والأكمل أن يحرص المسلم على الإكثار من شهود الخير منه حتى ولو كان ذلك في ممشاه وخطاه، ويستوي الحكم في ذلك أن يكون الإنسان راكباً أو يكون راجلاً؛ لأن الله ﷻ يثيب الإنسان سواء كان في ممشاه في الطاعة سواء كان راكباً أو كان ماشياً، وإن كان أجره ماشياً أعظم عند الله ﷻ من أجره راكباً كما هو معلوم من نصوص الشريعة في هذا الأمر.